قضية فلسطين.. وترويج الأباطيل

بقلم: د/محمد عبد النبي
كلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر

تعتري الشعوب غفوة قد تقصر وقد تطول، تسكت فيها عن ضيم يزداد وقعه كلما أطلت على محتل بوادر صحوة، أو أمارات حراك يُتحسب له، استعدادا لوأد خفي تُستبق به إطلالة وليد مكتمل، ويحرص دوما إلى إشاعة انطباع زائف عن شعب مخداج أو أمة غير ولود.

و كثيرا ما أغوت الغفوة حين تطول باسترخاء يوحي بانطباع ترسخه الأماني، وتصدقه مظاهر، قد يرتقي إلى أحكام يتبناها المظلوم نفسه أو من يناصره، ثم تفجأ الجميع يقظة تلجئ المحتل إلى مزيد قمع تصحو به ضمائر من يستكين إلى حين، ولا تسمح بمزيد تردد أو رهان على وهم شعار، تترسخ به خطط احتلال واستيطان.

ينتابني- أحيانا- توجس أدفعه بتحسس نصر مرتقب، لأن وعد الله لا يتخلف، ولأن شواهد التاريخ - القريب منه والبعيد-تؤكد بزوغ الفجر من رحم الليالي الطوال، لكن التاريخ نفسه- وهنا شاهد التوجس- يسجل بعض نجاح في كتم أنفاس التحرر، وقمع مشاعر انعتاق في بعض البلاد كأمريكا وأستراليا، ألا يوصف احتلال اليهود لفلسطين بأنه استيطاني إحلالي للتفريق بينه وبين باقي أنواع الاحتلال؟ ألا يفترق عن الاحتلال الفرنسي نفسه مع أنه يوصف بأنه استيطاني أيضا؟

ألا يمكن الزعم بأنه كلما حيثما وجد احتلال إحلالي دام واستقر؟

قد يصح القياس في بعض عناصره، لكن فوارق أخرى قد تأتي على استنتاج يُحرص عليه، ولا يصمد أمام تحليل قد يخلص إليه المستعمر نفسه، أو بعض العقلاء فيه على الأقل.

إنّ طبيعة الشعوب، وموقع الأرض التي تستوطن، - بين توسط وتطرف-، والتاريخ -غناء وفقرا : كل ذلك يضغط باتجاه تقليل التوجس، وترجيح فوارق يبطل بها القياس.

لو استمر الاضطلاع الرسمي بتحرير فلسطين لكان هناك إخفاق في الجانبين، بجامع أن كلا الطرفين-عند كثرة الخسائر-ينسحب إلى الأرض

التي انطلق منها، وترجح كفة اليهود بعد ذلك بالعقيدة التي تنتحل، وهو العنصر الذي يفتقده -منذ أربعين سنة-من تولى رسميا قضية فلسطين.

و لذلك جاءت الانتفاضة الأولى والثانية لتقطع الخيط الواهي الذي كان يمدّه الاتجاه الرسمي لأهل فلسطين، ولتقطع استرخاءً أنس به اليهود عقوداً، فشرعوا في دفع الثمن، وبعد أن شنوا الحروب بعيداً عن شعب يبحث عن أمن، إذا بهم يتحسسون مقاعدهم في الأرض التي أفلحوا في إخراجها من دائرة الصراع، وشارون الذي احتفل بطرد عرفات من بيروت يُفاجأ به في غزة، ولعل هذا الأمر يوضح الجانب الشخصيّ في الصراع.

و قد وصلت الطمأنينة الزائفة-كما يصفها الدكتور المسيري-" التي تمتع بها المستوطنون إلى درجة أن الخريطة السياحية التي أصدرها المجلس الإقليمي لمستوطنات غور الأردن قبل الانتفاضة لا يظهر عليها أي قرى أو مدن عربية، كأنها قد أزيلت، أو كأنها لم توجد أصلا، ولذا كان غور الأردن-حسب هذه الخريطة الوهمية-هو أكثر الأماكن أمنا على وجه الأرض...و قد بدأت إذاعة المنطقة حملة لجذب مستوطنين جدد، واشترك في الحملة مغني إسرائيلي دعا المستوطنين إلى الانتقال إلى الوادي ليحققوا أحلامهم..."(1)

كانت هذه الصورة الوردية قبل الانتفاضة، أما بعدها فهذه بعض أوجه الحياة كما يصورها اليهود أنفسهم.

يقول أحد الكتاب في صحيفة "يدعوت أحرونوت" الإلكترونية : " الهستيريا التي ولدتها الأوضاع الأمنية جعلت بعض المقاهي والمطاعم في المدن الكبرى تضع حراسا على مداخلها، وتجبي من الزبائن مبالغ مالية مقابل الحراسة.." (2)

إن مقاومة اليوم وأساليبها المتجدّدة لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الصراع، وسلاح الاستشهاد أخلّ بكل حساب، وتوديع الأمهات للشهداء أعاد سيرة الرعيل الأول في صور للفداء تفوق كل تصوّر، فاستُنفرت كل القوى بما فيها رئيس أكبر قوة في العالم للتنديد بهذا السلاح، مما يدلّ على مضائه بما يفوق في التأثير كل الحديد المخزن في العالم العربي.

يقول كاتب في صحيفة هارتس الإسرائيلية : " إن عنف الانتحاريين سلاح يفوق في نجاعته أيّ سلاح آخر يمكن للعرب أن يستخدموه بما في ذلك ما يوجد بحوزة صدام حسين، هذا سلاح غير تقليدي يزرع اليأس في إسرائيل... ويزعزع دعائم وجودها كما تشير ردود الفعل اليائسة منها، وقسم من الإسرائيليين بينهم عدد من الوزراء - حتى - يردون من خلال خطوات وأفكار يائسة، أرييل شارون وليس العدو هو الذي طلب أولاً وقف

إطلاق النار ... وعندما اندلع العنف الفلسطيني قال نائب رئيس هيئة الأركان اللواء موشي يعلون: إنه لم تحدث مثل هذه المواجهة منذ حرب 1948، وأضاف: إن هذه الحرب هي في الواقع امتداد لتلك الحرب... " (3).و كان وزير الخارجية الحالي "بيريز" ورئيس الوزراء السابق "باراك" قد صرّحا بأنهما يخوضان لأول مرة حرباً وجوديّة منذ 1948.

ما أشبه الليلة بالبارحة، فحين قال الرئيس الجزائري الأسبق في شهادته على العصر بأن شتم أستاذه للنبي صلى الله عليه وسلم جرحه وهو في سن الرابعة عشرة، وأنّ تلك الحادثة غيّرت مجرى حياته، وحسمت لديه أيّ تردد في ضرورة المواجهة، حينها تذكرت تدنيس شارون للمسجد الأقصى الذي فجّر الانتفاضة الثانية لشعب فلسطين، وفي ذلك إشارة إلى حتميّة النصر بإذن الله. وفي معركة جنين المشهورة " قال الجنود للصحفيين: إن جنين سببت أسوأ صدمة لأقوى جيش في الشرق الأوسط خلال الانتفاضة الفلسطينية... " (4).

لقد كان هذا الجيش منذ احتلاله لفلسطين يصول ويجول كيفما اتفق، وكان عنيفاً في الردّ على أيّ استفزاز، وبعد أن انتُقصت أطرافه بالانسحاب المذلّ من جنوب لبنان استعار - جزئيّاً على الأقل- أسلوب من كان يستأسد عليهم، ويصرّح عقب بعض العمليّات بالقول: سنردّ في الوقت المناسب، ولن ننجرّ إلى معارك جانبية.

لن ندخل في تفاصيل الخسائر التي تكبّدها لأول مرة في تاريخ الصراع كما أوردتها بعض وسائل الإعلام، ولن نتكلّم عن الهجرة المعاكسة ولا عن الكساد الاقتصادي، ولكن حسبنا أن نعرض لبعض أنواع المعاناة الفردية التي تمرّ على اليهود في داخل فلسطين لمحتلّة عام 1948 مما لم يعهدوه من قبل، ولأول مرة يذوقون طعم الخسارة والفشل، وأدنى مظهر من مظاهر ذلك تؤثر في هذا الكيان الهشّ الذي يقوم على توفير الأمن على حساب الحدود والشعوب. وبعض ما يُذكر ههنا يُرجّح رأياً في الساحة تتنامى شواهده، مفاده أن الانتفاضة أبرزت التناقضات داخل المجتمع الإسرائيلي، وكشفت عن قدر من العنف مارسته السلطة الإسرائيليّة وُصف - في الحدود الدنيا للتنديد - بأنه غير مبرّر وغير أخلاقيّ، وأزاحت القناع عن وجه عنصريّ مَقيت، حتى " جعلت كبير حاخامات اليهود في بريطانيا يحذر من خطورة ممارسات الجيش الإسرائيلي الوحشية ضد الأطفال والأبرياء في فلسطين على الدين اليهودي وقيمه وتعاليمه." (5) فتكون الانتفاضة قد أحيت الأمل وذكرت العالم بقضيّة فلسطين، وعزلت معنويّاً - على الأقل - دولة إسرائيل، وهذا ما لم تفعله المراهنات السابقة على المفاوضات والقرارات

الأمميّة، بدليل أنها لم تُثر ما أثارته الانتفاضة من حراك، ولأن المحتلّ إذا أمِن لم يلتفت إلى معاناة الأغيار، فلما بدأ الخوف يتسلل إلى عقر الدار انتفض بعضهم متسائلاً تارة ومستنكراً تارة أخرى، مع ازدياد في وتيرة العنف الممارس، ضمن المشاهد الأخيرة للصراع بإذن الله.

وجّه ضابط إسرائيليّ رسالة إلى وزير دفاعه بتاريخ: 2002/03/19 جاء فيها: "... إنني لا أرفض فقط الخدمة في الأراضي الفلسطينية المحتلة كما كنت أفعل في الخمسة عشرة عاماً الماضية ولكني أرفض الخدمة في الجيش الإسرائيلي في أيّة وظيفة. فمنذ 2000/09/29 يشنّ الجيش الإسرائيلي حرباً قذرة ضد السلطة الفلسطينية، هذه الحرب القذرة تتضمّن اغتيالات لاشرعية، وتقتل النساء والأطفال، وتدمّر البنى التحتية الاقتصادية والاجتماعية للشعب الفلسطيني... لقد بذرْتَ الخوف والإحباط، لكن فشلت في الوصول إلى هدفك، فلم يتخلّ الفلسطينيون عن حلمهم في السيادة والاستقلال، ولا أنت قدمت الأمن لشعبك بالرغم من العنف المدمّر الذي يقوم به الجيش الواقع تحت مسؤوليتك... ".

و من ضمن ما قاله في رسالة طويلة: "... إن الدبابات في رام الله لا يمكنها منع الإبداع، إن اليأس هو الذي فجّر المقاهي، أنت وضباطك الذين تحت إمرتك أوجدتم بشراً اختفت آدميّتهم خلف اليأس والإهانة، أنت أوجدت هذا اليأس ولا يمكنك إيقافه... ".

و يختم الرسالة بالقول: " إنّ جيشك الذي يزعم أنه جيش الدفاع الإسرائيلي لا شئ سوى أنه جناح مسلّح لحركة المستوطنات، هذا الجيش لا يوفر الأمن للمدنيين في إسرائيل... " (6).

لعلّه أخطر تحدٍّ يواجه شارون، فقد أعطى مهلة المائة يوم لجعل الفلسطينيين يستسلمون وفشل بالمفهوم الاستراتيجي - فشلاً ذريعاً.يقول الدكتور عزمي بشارة : " المجتمع الإسرائيلي وصل إلى قناعة بشأن التسوية، لقد تعب في العامين الماضيين أكثر من أي فترة ماضية من الاقتصاد والوضع الأمني، ومدرك أن شارون قد فشل في تحقيق أهدافه." (7)

و في رسالة أخرى يوجهها أستاذ إلى زميل له تقلّد وظيفة قائد لواء المظلات في مخيّم بلاطة يذكره بأيام الدراسة وما توسمه فيه وما كان يتأمله منه، ويذكر له ما فعلت قواته في الخيّم ثم يختم رسالته بالقول: " إنني لم أتوقف برهة عن التفكير بشأنك منذ تلك المقابلة التلفزيونية، محاولاً أن أفهم ما كان يدور بخلدك، ما هو الدافع لذي جعلك تقود جنودك إلى حرب ضدّ سكان مدنيين؟

عفيف: إنني أقوم في الوقت الحاضر بإلقاء محاضرات بعنوان: سياسة حقوق الإنسان، وإن أحد الموضوعات التي أناقشها في هذا الفصل الدراسي تتعلق بالانتفاضة وصلتها بحقوق الإنسان، وفي هذا السياق إن ما فعلته في بلاطة يشكل من وجهة نظر الاتفاقيات الدولية على الأقل انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان، بل إن مثل هذه الأفعال في الحقيقة ما هي إلا جرائم حرب.

عفيف:ماذا حدث للضابط العاقل، كيف أصبحت مجرم حرب؟ ". (8)

و هذه شهادة أخرى من عالم إسرائيلي كبير يقول فيها : " أنا كنت أحد كبار المعجبين برئيس الحكومة " أرييل شارون"، كنت أعشقه إلى ما قبل بضع سنوات، لكنني أرى فيه اليوم مجرما يمارس إبادة شعب بكل معنى الكلمة، وليس عندي شك في أنه سيقدم إلى القضاء الدولي في يوم من الأيام، ليحاكم بسبب جرائم الحرب و الإبادة التي ينفذها...إنه يقود سياسة ذبح شعب ضد الفلسطينيين، ويتوقع أن تنتهي بوثيقة استسلام يوقعون له عليها، ولكي تكون مذابحه شرعية يحتاج شارون إلى عمليات تفجير تقتل عددا منا نحن مواطني إسرائيل، فهو وضع لنفسه هدفا استراتيجيا واضحا هو تحطيم السلطة الفلسطينية حتى توقع على الاستسلام، ربما لا يستطيع أن يبرر فعلته، لذا تجده يستدعي عمليات فلسطينية ضد إسرائيل..."

و يختم هذا العالم كلامه في سياق حديثه عن شارون وباقي زعماء إسرائيل فيقول : "...إن مصيبة إسرائيل أنه لا يوجد فيها زعيم أفضل من "نتنياهو" _و يتمنى أن يكون لإسرائيل زعيم بمستوى ياسر عرفات_" فهذا الرجل عبقري، يتهمونه عندنا بالكذب وبالإرهاب، وأنا لو كنت مكانه لفعلت الأمر نفسه، فهل أبقينا له حلولا أخرى؟ هل يوجد قائد إسرائيلي واحد تعامل معه عرفات ولم يكذب؟ إن عرفات بالنسبة للفلسطينيين مثل بن غوريون بالنسبة لنا. " (9)

و في مقال لأحد الكتاب العرب يسوق فيه واقعة يحاول أن يستنطق دلالاتها الكثيرة فيقول : " في السابع من اب (أغسطس) الجاري نشرت صحيفة الغارديان البريطانية مقاطع من كلمة ألقاها أب إسرائيلي فقد ابنه في إحدى العمليات الفدائية في تموز(يوليو)الماضي، وفي تلك الكلمة التي ألقيت في القدس في أواخر تموز أنحى الرجل و اسمه:يتزاك فرانكنثال-باللوم على الاحتلال الإسرائيلي في مقتل ابنه الذي كان يعمل جنديا في جيش الاحتلال وقال في كلمته :

لقد قتل ابني اريك على يد مقاتلين فلسطينيين يؤمنون بأخلاقية الكفاح ضد الاحتلال، لم يُقتل ابني لأنه كان يهوديا، بل لأنه جزء من أمة تحتل

أرض الآخرين.إني أعلم أن هذه المفاهيم يصعب ابتلاعها، ولكني أجد من واجبي أن أعلنها بوضوح وصراحة، لأنها تنبع من قلبي، من قلب أب لم تكتب لابنه الحياة، لأن جبروت القوة أعمى شعبه.و جاء في الكلمة أيضا : لقد وُلد قاتل اريك تحت احتلال فظيع وفوضى أخلاقية، ولو وُلد ابني في مكانه لربما كان انتهى إلى نفس المصير، ولو أني نفسي كنت وُلدتُ في الفوضى السياسية والأخلاقية التي تطبع الحياة اليومية للفلسطينيين لكنت بالتأكيد اجتهدت في قتل وإيذاء المحتل، ولو لم أفعل لكنت ارتكبت خيانة في حق نفسي كإنسان حر، ليتفضل كلّ أولئك الذين يدّعون الطهارة الأخلاقية وهم يتحدّثون عن القتلة الفلسطينيين القساة بإلقاء نظرة فاحصة على المرآة، أما أنا فأقول عن نفسي إنني كنت بلا شكّ سأكون مقاتلاً من أجل الحريّة، ولكنت قتلت من الجانب الآخر أكبر عدد يمكنني قتله. إنّ هذا النفاق المزري هو الذي يدفع الفلسطينيين لمقاتلتنا بلا هوادة، هذه المعايير المزدوجة التي تسمح لنا بالافتخار بأعلى المستويات الأخلاقية عندنا، بينما يقتل جنودنا الأطفال، هذا البؤس الأخلاقي سيصيبنا بلا شكّ بالفساد...".

و بعد أن ينقل كاتب المقال كلاماً آخر لهذا الأب الذي فقد ابنه يستخلص عبراً كثيرة لعلّ أهمّ ما يعنينا سوقه ههنا قوله: " هذه كلمات قوية وواضحة بلا شكّ، وتعبر عن يقظة أخلاقية وصحوة ضمير، إضافة إلى الشجاعة التي لابدّ منها للتعبير عما يمليه الضمير اليقظ، ولكن طبعة هذه اليقظة هي تعبير عن عمق أزمة المجتمع الإسرائيلي، فهذه اليقظة لم تأتي إلا بعد فقدان الابن العزيز، مما يعني أن الابن لو عاد سالماً من رحلات صيد الفلسطينيين دون أن يصيبه مكروه لما كانت هناك يقظة.. ولكانت أزمة قهر الفلسطينيين التي رآها الأب المكلوم أسّ البلاء مرّت دون أن تثير اهتمامه."(10)

و هذا يعني أن الاضطرار هو الذي يصنع التعقّل ويدفع إلى التفكير في المثال الإسرائيلي، أما العيش الهنيء والهادئ فقد يدفع إلى التحسر المكتوم لمدَد يسيرة ثم تمضي عجلة الحياة دون التفات، تبرر المظالم فيها - عند من يملك قطرة من ضمير - أساطير وأوهام يقتات عليها مقترفو الاثام.

أما أطرف ما يُنقل في هذا المجال وإن كان لا يخلو من عبرة تدرجه في السياق السابق، فهو ما خاطب به أحدُ اليهود الاستشهاديين يدعوهم فيه إلى التحقق من الأهداف التي تُضرب، يقول الرجل: " أريد في البداية لفت انتباهكم إلى مسألة تتعلق بالعملية التي نفذها سابقوكم قبل عدة أيام في مقهى (مومنت) في القدس، لقد ارتكب خطأ، كان يجب ألا يفعل ذلك.. أنا أعرف من يجلسون في هذا المقهى منذ سنوات، غالبيتهم الكبرى هم أناس طيبون

من أنصار السلام، بعضهم يعتقدون أنكم صادقون بشكل عام.. لقد شاركت دزينة من الذين جلسوا في مقهى مومنت قبل عدة ساعات من العملية، في تظاهرة أقيمت أمام منزل رئيس الحكومة..من أجل الانسحاب إلى حدود 1967 وإخلاء المستوطنات..أنا أفهمكم، إنكم تريد الانتقام لما لحق بكم من ظلم لا يُحصى بسبب الاحتلال..و لكن إذا كان لابد من ذلك فأنا أرجوكم ألحقوا الإصابة بالمسؤولين الحقيقيين عن هذا الظلم، وبأولئك الذين يوافقون معهم، وليس بأولئك الذين يتضامنون معكم..." وبعد أن يترجاهم بعدم قتل أنصار السلام والاقتصار على المستوطنين والجنود، يختم توسّله بالقول: " يتحتم عليكم بشكل إلزامي الانتقاء في عملياتكم والتفريق بين الأخيار وبين الأشرار، ومعاقبة الرجال والنساء والأطفال الذين يستحقون العقاب فقط.. عليكم أن تدرسوا جيداً خرائط المدن قبل خروجكم لتنفيذ العمليات الانتحارية، كي تعرفوا أين يتجول هؤلاء وأولئك..و في النهاية هل سأكون صفيقاً وشديد الأنانية إذا طلبت منكم في هذه المناسبة عدم الانفجار أمام البيت الواقع في شارع (أحيت بول 13) حيث أسكن أنا." (11)

و لكن بالرغم من هذا الوهن البين يزداد تطرف اليهود، وهي الصورة التي يلوح بها نفر من كتابنا للتدليل على فشل الانتفاضة وازدياد معاناة الفلسطينيين في ظلها، "..فما هو تفسير هذا التطرف الصهيوني المتزايد؟ وما سر هذا التأييد الشعبي العارم لشارون(تناقص حسب آخر الاستطلاعات)، لمَ لم يولد الخوف من الهجمات الاستشهادية قدرا من الاعتدال؟ أليس انتخاب شارون دليلا قاطعا على صدق مقولة دعاة وقف الانتفاضة؟فشارون المتطرف حل محل باراك المعتدل بسبب الهجمات الاستشهادية." (12)

و للإجابة على السؤال يعرض المسيري للموقف النفسي للمستوطنين اتجاه السكان الأصليين من خلال سكون هؤلاء أو حراكهم، ومن خلال قوتهم أو ضعفهم "...فإن ظل السكان الأصليون ساكنين دون أن يتحدوا الرؤية الإدراكية الاستيطانية أو موازين القوى السائدة، أصبح من الممكن قبولهم ككم متخلف هامشي غائب، ويصبح من الممكن إظهار التسامح تجاههم، بل ومنحهم بعض الحقوق مثل الحكم الذاتي..أما إذا تحرك السكان الأصليون لتأكيد حقوقهم ورفضوا الهامشية المفروضة عليهم وتحدوا الرؤية الاستيطانية وبدءوا في تغيير موازين القوة لصالحهم، فإنهم يصبحون مصدر خطر حقيقي، ومن ثم يتعين ضربهم، ويصبح التسامح معهم أمرا غير مطروح، وبالتالي يتزايد التطرف والبطش..."(13)

و يستدل المسيري بما حدث في جنوب إفريقيان وازدياد المقاومة مع ازدياد البطش إلى أن اكتشف المستوطنون عدم جدوى الإرهاب المؤسسي،

ليستخلص "..أن تطرف المستوطنين هو مؤشر على أن الرسائل المسلحة التي يرسلها السكان الأصليون بدأت تصل إليهم،و أن التطرف والشراسة ليسا سوى المرحلة قبل الأخيرة التي تسبق تحطم الأسطورة والرضوخ للأمر الواقع.."(14)

لقد كانت الانتفاضة ظاهرة مشرفة، تستجلب التعاطف والإشفاق، ولكنها تدفع إلى الإعجاب - ولو سراً - لدى أولئك الذين لا يجرؤون على البوح بمشاعرهم ممن يخشون سطوة الإعلام، أو انتقام يهود.

و لو ألقينا نظرة على الطوائف التي تستصغر هذه الظاهرة، أو تستبشع "عنفها"، أو تستهين بنتائجها، أو تندد بعبثيتها لوجدنا أنها طوائف تتأذى بطريق مباشر أو غير مباشر بذيولها وتداعياتها، فضلاً عن أن مجرّد تبنّي مصطلحاتها يعرض هذه الطوائف للتصنيف والتهميش.و لن نعرض هنا لفئات أو أفراد تنتقد الظاهرة بتحفظ، وتسوق كلامها في سياق النصائح، وقد تدعو لبعض مراجعة تخدم الخيار العام ولا تتراجع عنه. كما أننا لن نتعرض لكلام بعض الكتبة - من أبناء جلدتنا - والتي تبدو كتابات بعض اليهود أخفّ وطأة بل أكثر إنصافا من كتاباتهم، على افتراض أن فيها بعض إنصاف يصلح للمقارنة. وحين تطل وجوههم على شاشات التلفاز وهم يوزعون التهم، ويدينون المقاومة بكل أشكالها لا يمكنك أن تدفع إحساسا يلحّ عليك انك أمام أناس لا تتردد في تفضيل من يفترض فيه العداء المطلق عليهم.

هناك وسائل إعلامية تنتمي مع الأسف إلى من يرفع شعار العروبة والإسلام، تتبنى مصطلحات الإعلام الغربي، وقد تفوقه، فالأصولية عندهم وصف يلاحق كل من ينتمي إلى العمل الإسلامي دون تفريق ولا تمييز بين معتدل ومتشدد، والعمليات الاستشهادية انتحار، والشهداء المفترضون "قتلى"، والمقاومة تيار عبثي لا برنامج له، يخدم شارون، وحماس والجهاد صناعة إسرائيلية، ومن أسف أن الاتهام الأخير يصدر من بعض قيادات السلطة الفلسطينية. وفي هذا الإطار انبرى طائفة من الكتاب في هذه الوسائل العربية للهجوم على ما أسموه بالخطاب العربي، والعقل العربي، في إطار حملة للجلد والتيئيس لم يسبق لها مثيل، وعُدّ كل من يختلف مع أمريكا أو من يحمل رؤية مخالفة للرؤية الأمريكية السائدة من تيار بن لادن أو " بن لكن " في إشارة إلى من يدين أعمال العنف ويستدرك بالقول إن أمريكا هي سبب مشاعر الكره والإحباط.

و من الغريب أن هؤلاء القوم من دعاة الرأي الآخر في الظاهر، لكنهم في الحقيقة يريدون من الجميع الاصطفاف خلف بوق وحيد يراد منا ترجيع صداه والتصفيق لحامليه، وإذا بدرت أي بوادر للتردّد أو التشكّك، أو حتى

التساؤل، يسارعون إلى إشهار اتهامات تزدهر لها أسواق وينشغل بالصفق فيها أقوام، كنّا نربأ بهم عن أن يلجوها، أو يبخسوا الناس فيها أشياءهم، ويكفي أن يُستلّ سهم من الجعاب يُرمى به بريء أو مخالف حتى يتحسس المسكين موقعه، أو يتوجس ممن حوله، تحسباً من قوائم تُعدّ على عجل، في خضم نزال يفرضه قويّ تفلّت من كل عقل أو عقال ليلزم الطرف الآخر بالركن القصيّ، وليضيع اعتدال وتوسط لا يكتفي الأول بتجاهله فحسب، بل يمنعه ويحاربه لتبرير خيار، وحشد الأنصار.

و مع أن هؤلاء يدعون إلى استغلال هوامش الحراك، واستثمار الفضاء المتاح لإثبات فاعليه، واستحقاق موقع في الزحام، ويدينون الفكر المطلق، ودعاوى العجز والتضييق، إلا أنهم نكصوا عن كل هذا حين دعا العقلاء إلى مقاطعة اليهود ومن يشايعهم فيما يمكننا مقاطعتهم فيه، وتسعفنا الخيارات في جنسه، وراحوا يشهّرون بالخيار، ويستهزئون بحامليه، ويستصرخون الضعفاء بأن رزقهم قد انقطع، ووظائفهم قد ضاعت، وبأن أمريكا لن تضارّ بهذا الموقف، وأثبتت الأيام أن الأمر ليس كذلك، وأن في ذلك بعض المضار لحقت بها، ونُشرت إحصائياتها، ولجأ الناس إلى بديل يشيع شيئاً فشيئاً ويتنامى أنصاره، وعلى كل حال فالموقف - لو التُزم - لكفى فيه العزم على الفعل والقدرة على إيذاء الخصم.

اليهود في العالم كله يحتشدون ويتداعون لمقاطعة بعض الصحف الأمريكية لمجرد أن محرراً فيها أعطى رأياً مخالفاً أو قدم رؤية أو تغطية متوازنة للأحداث، وتوجه أنظارنا إلى ضرورة اقتفاء الأثر في العمل الجماعي، فإذا حاول الضعيف ذلك تلقاه القوم بالتجهيل والتسفيه.

و لكننا لا ينبغي أن نذهب بعيداً، والبعض ممن يفترض فيهم أفهم من أهل الشعاب ويحمل أو حُمل على عاتقه أخطر ملف في القضية كلها يقول في خطاب له في الجامعة العبرية: " لن يعمّ السلام، ولن تقوم دولة فلسطينية إلا إذا تخلى الشعب الفلسطيني عن مطلبه بالعودة إلى دياره، وأن الانتفاضة الملطخة بالدماء هي حالة من التشنّج وليست ثورة شعبية، كما دعا الشعب الفلسطيني إلى الاعتراف والإقرار بالروابط التي تربط اليهود بالأقصى، وهو ما يسمونه بـ: (جبل الهيكل)."(15)

و في مارس الماضي نشرت الصحف العبرية بياناً وقعته مجموعة من المثقفين الفلسطينيين "..يصفون فيه انتفاضة الأقصى وعمليات المقاومة بالعنف.. وقد هاجم البيان بعض الأكاديميين الفلسطينيين، ووصفوا الموقعين بالمأخوذين بفكرة الوطن القومي لليهود في فلسطين، وأنهم بتصرّفهم هذا إنما يطعنون الأمة في خاصرتها، ويبايعون الاحتلال على أربعة أخماس

فلسطين.. وقبل أيام نشرت مجموعة من المثقفين.. إعلاناً في صحيفة القدس بتمويل من الاتحاد الأوروبي تهاجم فيه أبطال العمليات الاستشهادية بحجة أن عملياتهم تكرّس الحقد بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي.. متناسين أنّ الاحتلال نفسه هو سبب الحقد.." (16)

إنه نفس الأمر يستغرب له كاتب مشهور هو فهمي هويدي قبل أيام، ويتساءل عن سرّ الحملة وسرّ توقيتها دون الخوض في اتهام، أو تعيين أشخاص، لكن الإشارة لا تخطئها العين، والتلميح يقصد أقلاماً ولغت في الخطيئة، يقول الكاتب: " تطلّ علينا هذه الأيام كتابات عدة تتبنى خطاب التثبيط والتيئيس واحتقار الذات، الأمر الذي يلفت النظر، ويثير تساؤلات عدة عن مغزى اجتماع تلك الكتابات في اللحظة التاريخية الراهنة، التي تشتدّ فيها الحملة من كل صوب على الأمة العربية والإسلامية، وهو ما لا تفاجأ به وتستغربه ممن يقفون في معسكر الآخر..لكن حين تنضم إلى الحملة أصوات من داخل البيت العربي والإسلامي، في ذات التوقيت لكي تصب في ذات الوعاء، فإن الأمر يحتاج إلى وقفة لإثبات الحالة أولاً، وللبحث عما وراءها ثانيا..و بعد أن يشير إلى احتمال ارتباط هذه الحملة بالأجندة الأمريكية، في تلميح - ربما إلى مكتب التضليل الاستراتيجي الذي قيل أنه تم التراجع عنه، واستعيض عنه لاحقاً بمشروع استضافة وتدريب أقلام صحفية - بعد ذلك يقول: " لقد شاع بيننا مؤخراً ما وصفه أحد زملائنا بخطاب (هجاء الانتفاضة) الذي عبر عن الامتعاض والاستياء إزاء العمليات الاستشهادية والاشتباكية مع العدو الإسرائيلي، وهو ما أثر البعض - وهو ممتعض - أن ينتقده بحسبانه من قبيل عسكرة الانتفاضة، وكأنه كان على الفلسطينيين أن يردوا على الاقتحامات وقتل المدنيين والقصف بطائرات (أف 16 والأباتشي) بإصدار البيانات وتعليقها على الجدران، أو بالتلويح بأغصان الزيتون وحمائم السلام، والصلاة والصوم من أجل العودة إلى مائدة المفاوضات.

إنه شيء مخز ومهين حقاً أن يعبر البعض عن ذلك الامتعاض والاستياء، بينما شلال الدم الفلسطيني لا يزال يتدفق بصورة يومية في مدن الأرض المحتلة وقراها. وفي حين سقط 2500 شهيد فلسطيني، وجُرح 39 ألفاً بينهم خمسة آلاف أصيبوا بإعاقات دائمة.. " (17)

لكن الأكثر خزياً هو ما أفتى به البعض، أو ما فُهم على أنه فتوى بتحريم العمليات الاستشهادية، ومن لم يصرّح منهم - حرجاً - ربما، فقد أدرجت فتواه بالصيغة التي وردت في قائمة من لم يقل بالجواز، فقد أوردت جريدة الشرق الأوسط ما نصّه: " أثار حديث الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار

العلماء..للشرق الأوسط يوم السبت 04/21 الماضي ردود فعل متباينة حول العمليات الانتحارية؟! التي يقوم بها البعض تحت مظلة الجهاد، ومع أن فتوى الشيخ لم تكن جازمة بالإباحة أو التحريم إلا أن وكالات الأنباء ووسائل الإعلام العربية والعالمية تناولتها مختصرة بالتحريم، وكأي فقيه التزم المفتي الأسلوب العلمي في الردّ ما نصّه: أما ما وقع السؤال عنه من طريقة قتل النفس بين الأعداء أو ما سميته بالطرق الانتحارية، فإن هذه الطريقة لا أعلم لها وجهاً شرعياً ولا أنها من الجهاد في سبيل الله وأخشى ان تكون من قتل النفس، نعم إثخان العدو وقتاله مطلوب بل ربما يكون متعينا لكن بالطرق التي لا تخالف الشرع.."(18)

لقد ذهب الرجل إلى القول بالتحريم في أبلغ صورة، ونصّ على عدم الجواز ودلّ كلامه على عدم الجواز بما لا يرقى إليه النصّ على ذلك صراحة، فالطرق انتحارية، ولا يعلم لها وجها شرعيا، وليست من الجهاد في سبيل الله؟! وبالمقابل يقترح طرقا شرعية لا يحددها.إننا نفهم أن تُوصف في الإعلام بأنها عمليات انتحارية وأن يصرّ على وصفها بذلك بوش وغيره، لكن أن يتمسّك بالألفاظ علماء أفاضل ويهملون المباني والمقاصد فهذا هو المستغرب، فالمنتحر يقتل نفسه يأساً من الحياة، أما المستشهد فيستبدل بها ما هو خير،إثخانا في العدو ابتغاء مرضاة الله وطمعاً في الجنة.و هذا هو الذي انبه إليه الدكتور فتحي الدريني بإثبات الشهادة لمن يُقدم على هذا الفعل "... من منطلق أن الإسلام يهتم كثيرا بالمقصد، حيث توجد قاعدة عامة في الشريعة الإسلامية وهي أن الأمور بمقاصدها.."(19).

الإحالات:

(01): عبد الوهاب المسيري: من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية - مطبوعات الدرة - الطبعة الأولى: 2002/ ص06 .

(02): بتاريخ: 2002/03/14.

(03): بتاريخ: 2002/03/21.

(04): صحيفة القدس العربي - 2002/04/11.

(05): صحيفة القدس العربي - 2002/10/01.

(06): **إسلام أون لاين. نت** - بتاريخ: 2002/03/21.

(07): **الجزيرة. نت**- بتاريخ: 2002/09/27.

(08): صحيفة الوطن السعودية - بتاريخ: 2002/04/12.

(09): صحيفة الشرق الأوسط - بتاريخ: 2002/03/25.

(10): عبد الوهاب الأفندي - صحيفة القدس العربي.
(11): صحيفة يدعوت أحرونوت الإلكترونية - بتاريخ: 2002/03/14.
(12): عبد الوهاب المسيري - من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية/ ص: 7.
(13): المرجع السابق/ص: 8.
(14): المرجع نفسه/ص:9.
(15): عادل أبو هاشم - الطابور الخامس وفلسفة الهزيمة - الرأي العام الكويتية - بتاريخ: 2002/07/10.
(16): المرجع السابق.
(17): فهمي هويدي- صحيفة الشرق الأوسط - بتاريخ: 2002/10/07.
(18): بتاريخ:2002/10/07.
(19): صحيفة الشرق الأوسط - بتاريخ: 2001/05/08.